مفهوم صبغة الله وآثارها

د.سلطان العميري



قوله تعالى: {صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون} [البقرة: 138].

قوله تعالى: {صبغة الله}

الصبغ ما يلون به الأشياء، وقد اختلف العلماء في المراد بصبغة الله هنا،

فقيل: دين الله، وهو قول ابن عباس وقتادة وأبي العالية والربيع ومجاهد وعطية وبن زيد،

وقيل: فطرة الله، وهو قول لمجاهد، ومن قال هذا القول، ذكر أن معنى الكلام: بل نتبع فطرة الله وملته التي خلق عليها خلقه، وذلك الدين القيم([1]).

ولا تعارض بين القولين،وهما متلازمان، ولكن الأقرب القول الأول،

وهو أن المراد بصبغة الله دين الله الذي شرعه لعباده؛ لأنه الأنسب للسياق؛ ولأنه الذي عليه جمهور أئمة السلف.

وإنما سمي الدين صيغة؛ لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل لأن المتدين يلزمه ولا يفارقه، كالصبغ يلزم الثوب([2]).

والكلام في الآية فيه إضمار، وتقديره: الزموا واتبعوا صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ودل على هذا التقدير نصب لفظ صبغة، فهي منصوبة على الإغراء.

ومقتضى ذلك: الزموا صِبغة الله، وقوموا به قياما تاما، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صِبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبةً، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية([3]).

وبناء على ما سبق فإن يتحصل مفهوما مقاربا لمعنى صبغة الله، وحاصله: الالتزام بدين الله ظاهرا وباطنا والدوام على ذلك، بحيث يكون ذلك صفة لازمة للعبد.

([1]) انظر: تفسير الطبري (2/604).
([1]) انظر: تفسير البغوي (1/157).
([1]) انظر: تفسير السعدي (68).

قوله تعالى: {صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون} [البقرة: 138].

قوله تعالى: {ومن أحسن من الله صبغة}

هذا استفهام إنكاري، والمعنى: لا أحد أحسن من الله تعالى في تشريعه للدين الصالح للناس.

ولفظ "أحسن"

هنا استعمل على غير بابه، فإنه لا يراد به التفضيل، فلا مقارنة بين صبغة الله وصبغة غيره حتى يفضل بينهما، وإنما المراد هنا بيان الفضل مطلقا، وهذا الأمر له أمثلة متعددة في القرآن.

قوله تعالى: {ونحن له عابدون}

"نحن" يعود على النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه؛ هذه الكلام فيه تقديم وتأخير، وأصل تركيبه: ونحن عابدون له، وإنما قدم لأمرين: الأول: مراعاة فواصل الآيات؛

والثاني: لإفادة الحصر والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: {إياك نعبد}([1]).

واستعمل هنا الجملة الاسمية؛ للدلالة على الدوام والاستمرار، والمعنى: إفرادنا لله تعالى بالعبادة دائم مستمر لا ينقطع([2])، وهذا المعنى مناسب غاية المناسبة لوصف دين الله بأنه صيغة، فإن الصبغ يستلزم الدوام والثبات والاستمرار، فإذا التزم المسلم بدين الله فقد ثبت على العبادة واستمر عليها.

([1]) انظر: تفسير القرآن– البقرة– (2/97).
([2]) انظر: تفسير أبي السعود (1/168).

ومن أهم ما تدل عليه هذه الآية موضوعان إيمانيان:

الموضوع الأول:

مفهوم صبغة الله ومركزيته، وقد سبق أن مفهوم صبغة الله ما يلزم به الإنسان نفسه من الأخذ بدين الله ظاهرا وباطنا والدوام على ذلك، بحيث يكون ذلك صفة لازمة للعبد.

والتعبير عن دين الله بلفظ الصبغة دقيق جدا، فهذا اللفظ من أقوى الألفاظ التي تكشف عن طبيعة دين الإسلام، وعن عمق أثره في حياة المسلم فيما إذا التزم به التزاما صادقا،

فلفظ الصبغة ومفهومه يدل على أن صبغة الله تقوم على مقومات راسخة، من أهمها أربع مقومات أساسية:

المقوم الأول:

الشمول، وهو أساس المقومات وأصلها، فلا يكون الإنسان مصبوغا بدين الله حتى يكون دين الله مستوعبا لكل حياته، فتغدو حياته كلها مصبوغة بما شرعه الله وأراده، مصبوغا بدين الله في عقيدته، وفي تصوره وفكره وتفكيره، وفي استدلاله ونظره، وأخلاقه ولباسه، وعلاقاته وتعاملاته، وكل ما يحيى عليه البعد ويموت عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]

ومن أقوى ما يدل على هذا المقوم ما جاء في حديث شعب الإيمان، فقد اجتهد في العلماء في حصرنا وعدها، ومن يتأمل في جملة ما ذكروه ينكشف له شمول دين الله لكل ما يتعلق بحياة الإنسان وأحواله.

وذكر ابن حجر أنه لخص تلك الشعب ووجد أنها تتفرع على أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن.

فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه والإيمان بملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه المسألة في القبر، والبعث والنشور والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، ومحبة الله، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق، والتوبة والخوف والرجاء، والشكر والوفاء، والصبر والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة والتواضع، ويدخل فيه توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد وترك الحقد، وترك الغضب.

وأعمال اللسان، وتشتمل على سبع خصال، التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم وتعليمه، والدعاء والذكر، ويدخل فيه الاستغفار، واجتناب اللغو.

وأعمال البدن، وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها ما يختص بالأعيان، وهي خمس عشرة خصلة، التطهير حسا وحكما، ويدخل فيه اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضا ونفلا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه إطعام الطعام، وإكرام الضيف، والصيام فرضا ونفلا، والحج والعمرة كذلك، والطواف والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفارات.

ومنها ما يتعلق بالاتباع، وهي ست خصال التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة، أو الرفق بالعبيد.

ومنها ما يتعلق بالعامة، وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة، والمعاونة على البر، ويدخل فيه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه المرابطة، وأداء الأمانة، ومنه أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف، ورد السلام وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق([1]).

فهذه الشعب بتوعها وتعدد جهاتها تحقق صبغة الله، وتجعل حياة الإنسان مصبوغة بما شرعه الله وأراده.

([1]) انظر: فتح الباري (1/52).

المقوم الثاني:

اللزوم والثبات، فلا يتحقق معنى الصبغ حتى يكون ما يصبغ به الشيء ثابتا فيه وملازما له، فيكون معبرا عن هويته كاشفا عن مميزاته.

ولهذا جاء التعقيب بعد ذكر صبغة الله بقوله: {ونحن له عابدون}، فاستعمل هنا الجملة الاسمية؛ للدلالة على الدوام والاستمرار، المعنى: إفرادنا لله تعالى بالعبادة دائم مستمر لا ينقطع.

المقوم الثالث:

الظهور، فمعنى الصبغ لا يتحقق بالفضاء والغموض، وإنما يتحقق بالظهور والجلاء، فإذا قلت عن شيء ما بأنه مصبوغ بكذا وكذا، فهذا يعني أنه اتصافه بما صبغ به ظاهر جدا لا يحتاج إلى عناء في معرفته.

المقوم الرابع:

قوة التأثر، فإذا حكم على شيء ما بأنه مصبوغ بوصف معين، فهذا يدل على أن تأثير ذلك الوصف قوي فيه جدا، بحيث أنه أصبح معروفا به.

فمن اتصف بالإسلام وأخذ به حق الأخذ فإن مقتضى ذلك أن يكون الإسلام شاملا لكل حياته، وأن يكون ملازما للإسلام وثابتا عليه في كل أحواله، وأن تكون معالم الإسلام ظاهرة على تصرفاته وأحواله، وأن يكون تأثير أحكام الإسلام قوي في عقله وتفكيره وعمله وقوله.

آثار تحقيق صبغة الله:

يختلف تأثير صبغة الله بناء على أخذ الإنسان بها، فصبغة الله تزيد وتنقص، فكذلك آثار تقوى تضعف، ومن أهم آثار تحقيق صبغة الله في حياة الناس.

الأثر الأول:

تحقيق العبودية لله تعالى، فمن حقق صبغة الله في حياته، فإنه يحقق أمرا من أعظم الأمور التي يحبها الله تعالى، وهو استقرار مظاهر العبودية له وانتشار معالم إفراده تعالى بما يستحقه.

الأثر الثاني:

سهولة الالتزام بشعائر الدين، فإن دين الله إلى أمسى صبغة في حياة الإنسان وصفة من صفاته الملازمة له، أوجب ذلك له الانقياد لأوامر الله، طوعاً واختياراً ومحبةً، وصار الدين طبيعة له، بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة.

الأثر الثاني:

الضبط الأخلاقي، وتحقيق الاستقامة الصحيحة، فإن العبد إذا آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثَّر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده.

واعتبر ذلك بنقيضه، فإن العبد إذا كَفَر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين اتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده([1])

الأثر الرابع:

تحقيق التمايز مع أهل الباطل والانحراف، فتحقق صبغة الله في حياة الإنسان، واستقرار صبغة الله في المجتمع من أقوى ما يظهر خصائص أهل الحق ويجعلها ظاهرة بينة، وهذا يؤدي إلى تحقق التمايز مع أهل الباطل والانحراف، وهو مقصد من مقاصد الشريعة كما سبق التأكيد عليه كثيرا.

الأثر الخامس:

تحقيق الحصانة ضد الانحرافات، فإذا أصبحت حياة الإنسان مصبوغة بصبغة الله، وأضحى المجتمع المسلم كذلك، فإن ذلك يكوّن سدا منيعا أمام تسرب الانحرافات الفكرية والعقدية إلى كيات المجتمع؛ لأن جسد المجتمع سيكون مصبوغا بسياج منيعة، فلا تجد الانحرافات موضعا للتسرب من خلالها إلى داخله.

([1]) انظر: تفسير السعدي (68).

الموضوع الإيماني الثاني:

الموضوع الثاني:

أفضلية صبغة الله على غيرها، فكما دلت الآية على وجوب لزوم صبغة الله ومركزيتها، فإنه دلت في الوقت نفسه على أنها أفضل ما يمكن للإنسان أن يأخذ به، وذلك في قوله تعالى: {ومن أحسن من الله صبغة}.

ومن أعظم ما يدل على تفضيل صبغة الله على غيرها أنها من الله تعالى، فهذا الأمر يكفي في إثبات فضلها وبيانها، فالله تعالى هو الذي اختارها لعباده، وهو سبحانه الذي شرعها لهم، وهو سبحانه الذي ارتضاها لهم، وهو سبحانه الذي حدد معالمها لهم.

فصبغة الله مبنية على تمام العلم والحكمة والرحمة والعدل، ولا يمكن أن تتحقق الصبغة الصالحة إلا بتوفر هذه تمام الصفات، ولا يمكن أن يوجد أحد غير الله تعالى متصف بها، ونتيجة هذا أنه لا يمكن أن يوجد أحد غير الله يمكن أن يشرع للناس صبغة صالحة لحياتهم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : 52]

أي: بينا في القرآن جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق على علم من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكما غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

ولأجل هذا كان ذلك التفصيل المبني على تمام العلم هو الذي يحقق للمؤمنين الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغي والرشد، ويحصل أيضا لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفى عنهم بذلك الضلال والشقاء.

ومما يدل على تفضيل صبغة الله أنها مواققة للفطرة ومنسجمة معها ومقوية لها، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾
[الروم: 43]، فالله تعالى ووضع في عقول الناس كلهم حسن دين الله وصبغته، واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" ([1]).

وكل الأوصاف الأخرى التي تتميز بها صبغة الله إنما هي مبنية على هذين الأمرين: ربانية المصدر وفطرية الحال، وينبغي على المصلحين أن يحافظوا على بقاء هذين الأمرين، فمتى ما دخل الخلل أو النقص في ربانية المصدر أو فطرية الحال دخل الخلل في صبغة الله صعفا أو انحرافا.

([1]) رواه البخاري (1385)، ومسلم (2658).

مفهوم صبغة الله وآثارها

د.سلطان العميري